إفريقيا الساحل والصّحراء ساحة جديدة للجهاد؟

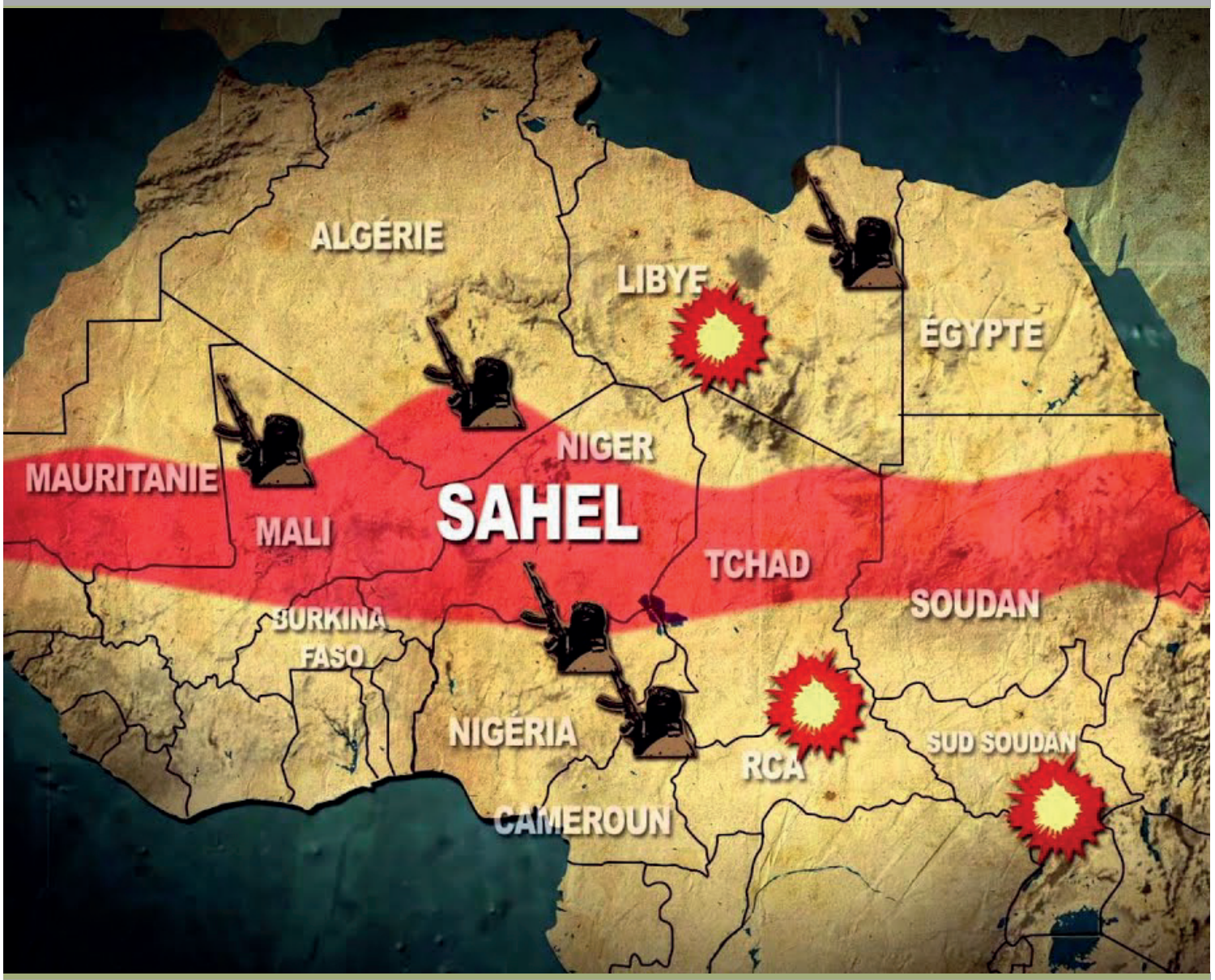

مارك أنطوان بيروز
ترجمة: أحمد فاضل الهلايلي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

إفريقيا الساحل والصّحراء ساحة جديدة للجهاد؟

مارك أنطوان بيروز (Marc-Antoine Pérouse)
ترجمة: **أحمد فاضل الهلايلي**

ما انفكّت قائمة الهجمات الإرهابيّة الّتي اقترفتها جماعات جهاديّة في إفريقيا المتاخمة للصّحراء تتمدّد؛ ففي الحادي عشر من تمّوز/يوليو (2010م) كان الهجومُ على ناد للرّكبي في «كامبلا» (kampala) بأوغندا، وكذلك في (26) آب/أغسطس (2011م) كان الهجوم على مكاتب الأمم المتّحدة في «أبوجا» (Abuja) بنيجيريا. وفي السّادس عشر من كانون الثاني/يناير من عام (2013م) استهدفت الهجماتُ موقعاً للغاز في «عين أميناس» بالجزائر، مثلما استهدفت في (21) أيلول/سبتمبر من العام نفسه المركزَ التّجاري في «ويستغيت» (Westgate) في «نيروبي» بكينيا؛ وكذلك الشّأن مع منجم اليورانيوم في المجمّع النّووي الفرنسي بـ «أريفا» (Areva) في «أرليت» (Arlit) بالنّيجر في (23) أيار/مايو من السّنة نفسها، ثمّ كان الهجوم على مدرسة الشرطة في «انجامينا» (N'jamina) في التّشاد يوم (15) حزيران/يونيو من عام (2015م). وفي (15) كانون الثاني/يناير من عام (2016م) كان الهجوم على نزل «سبلانديد» (Splendid) في «واغادوغو» في بوركينا فاسو؛ إضافة إلى استهداف محطّة الاستحمام في «بسّام الكبير» (Grand Bassem) بـ «الكوت ديفوار» (Cote D'Ivoire) في (13) آذار/مارس عام (2016م) وثكنة «غاو» (Gao) في مالي يوم (18) كانون الثاني/يناير (2017م). كما تمّ استهدافُ حيّ بأكمله في «مقديشو» (Mogadiscio) في (14) تشرين الأول/أكتوبر (2017م).

قبل ذلك، كانت يوم (7) آب/أغسطس (1998م) هجمات «القاعدة» (Al-Qaida) ضدّ سفارتي أمريكا في «نيروبي» (Nairoubi) و«دار السّلام»، وهي هجمات كانت قد أعلنت بصيغة أو بأخرى صدمة (11) أيلول/سبتمبر (2001م).

ويتمّ اليوم التحضيرُ لتدخّل عسكري ودولي لمواجهة خطر «الشّباب» في الصّومال و«بوكو حرام» (Boko Haram) في حوض بحيرة التّشاد وعناصر «القاعدة في المغرب الإسلامي» (Aqmi) شمال مالي.

إنّ فرنسا هي رأس الحربة في هذه المواجهة؛ خاصّة في السّاحل الإفريقي، فقد هيّأت أضخم انتشار عسكري منذ حرب الجزائر مع عملية «سارفال» (Serval) الّتي أطلقتها في كانون الثاني/يناير (2013م) في مالي، ثمّ تلتها عمليّةُ «باركان» (Barkhane) وواصل الجيش الفرنسي القيام بدوريات في البلدان الفرنكفونية ودول السّاحل من مجموعة الخمسة (Groupe de 5) الّتي أمضت معها اتفاقيات دفاع، وهي موريتانيا ومالي والنّيجر وتشاد وبوركينافاسو.

إنّ الوضعيّة تزداد قلقاً مع مرور الوقت، حتّى إنّ تحقيق الاستقرار مازال بعيد المنال، فقد أصبح الجهاديون، من الآن فصاعداً، وهم يحتلّون شمال البلاد، يهاجمون العاصمة لغاية القتل دون الاكتراث باحتجاز رهائن ليفاوضوا بهم من أجل الفدية.

أمّا ليبيا، فهي من جهتها ما انفكّت تنقسم على نفسها منذ التّدخّل الفرنسي البريطاني الّذي عجّل بسقوط معمر القذّافي في تشرين الأول/أكتوبر (2011م)؛ وفي غياب سلطة سياسيّة واضحة هيّأ هذا السّقوط أرضيّة ملائمة لوصول مقاتلي «داعش» الّذين كان كثير منهم قد وفد من العراق وسورية.

قوس الأزمة؟ (Arc de crise):

لقد عرفت نظريّة «قوس الأزمة» نجاحاً كبيراً في مثل هذه الحالة، إذ استلهمت هذه النظريّة المفاهيم الجيوسياسيّة لأضخم المِحَن في عالم ثنائي الاستقطاب أثناء الحرب الباردة، واتّجهت إلى تفسير تطوّر الإرهاب في صيغته الجهاديّة في «الشّريط السّاحلي» الّذي يشكّل مجموعة متجانسة، وهو إرهاب يتمدّد من البلدان العربيّة الواقعة على البحر الأحمر إلى حدود الصّحراء الغربية (Sahara Occidental) على واجهة المحيط الأطلسي في القارّة [الإفريقيّة].

ويُصوَّر الخطرُ على أنّه خطر شامل، وعدّت كلُّ النّزاعات في المنطقة نزاعاتٍ متداخلةً، بل متشابهة. وهكذا يجعلنا أصحابُ نظريّة «قوس الأزمة» نفهم أنّ ثورةً في «مقديشو» في الصّومال يمكن أن تمتدّ آثارُها كطلقة بارودٍ إلى «نواذيبو» (Nouadhibo) في موريتانيا على بعد عشرة آلاف كيلومتر من هناك.

إنّ هذه الفرضيّة المستوحاة من نظريّة «الدّومنو» (Domino) زمن الحرب الباردة، قد بدأت تطرح، تحديداً، لمّا تدخّل الجيشُ الأمريكي في «كابول» (Kaboul) نهاية عام (2001م). فقد خشي خبراء الاستراتيجيا في واشنطن من أنّ الإرهابيين الّذين طردوا من المنطقة ما بين الحدود الأفغانيّة الباكستانيّة، قد يبحثون عن ملجأ في مفازة الصّحراء الكبرى الإفريقيّة؛ فلذلك بدأ عناصر الجيش الأمريكي في الحديث عن «هلال الرعب» (Croissant de la terreur) وحتّى عن «هلال الموز» (Croissant de bannes)؛ وذلك استناداً إلى الطّريق الّتي سيقتفيها المقاتلون، وهم يعبرون آسيا الوسطى ليصلوا إلى الصّومال أو إلى السّودان.

ومنذ الآن، تستند سرديّة الإرهاب في «ساحلستان» (sahelstan) إذا نحن استعرنا العبارة الرّائجة، إلى أنّ مختلف الجماعات الجهاديّة في المنطقة قد تتّبع خيارات ميدانيّة تقضّ بصفة متزامنة أمن دول المنطقة، وتُقوِّض استقرارها تحت تأثير خطّة التّخفّي (الدومنو)، مثلما حدث في الهند الصّينيّة سنة (1975م)

لمّا استولى الشّيوعيون على الحكم في «سايغون» (Saigon) ثمّ على «بنوم بينه» (Phnom Penh) و«فيانتيان» (Vientiane).

إنّ مفهوم «قوس الأزمة» يعكس صورة أسلوبٍ من النّزاعات المتمثّلة ببعضها، ويرتكز على وَهْمِ تنسيقٍ استراتيجي، انطلاقاً من قيادة مركزيّة قد تتركّز اليومَ في جنوب ليبيا، وبإمكانها أن تُحرّك مقاتلي بوكو حرام في نيجيريا ومقاتلي القاعدة في المغرب الإسلامي (Aqmi) وحركة الشّباب في الصّومال أو «الحركة من أجل الوحدة والجهاد في إفريقيا» (Mujao) في موريتانيا.

إنّ أيّة تشكيلة متعدّدة العناصر لهي في الأغلب أيسر على الفهم، عند التّمييز بين عناصرها، من كثير من الجماعات الجهاديّة حاملةً أسماء متشابهة؛ فعلى سبيل المثال، هي تستعمل وبإفراط عبارة «أنصار» الّتي تعني صحابة الرّسول الّذين نصروه. وفي الواقع هناك تذبذب في الاختيار: من «أنصار بيت المقدس» في سيناء، إلى انشقاق بوكو حرام في نيجيريا وجماعة «أنصار المسلمين في بلاد السّودان». مروراً بالتّنظيمات الحاملة للاسم نفسه مثل «أنصار الشّريعة» في تونس وفي مصر وفي ليبيا. بيد أنّ هذا التقارب المعجمي لا يحيل ضرورة على تقارب إيديولوجي وهو، إلى ذلك، أقلُّ فاعليّة على صعيد الواقع (فلذلك لم يمثّل تنفّذ «أنصار الدّين» الّذي يضمّ مقاتلي «إياد أغ غالي» (Iyad ag Ghali) في شمال مالي، شيئاً ذا بال إطلاقاً، بالنّسبة إلى جماعة «أنصار الدّين» التّابعة لشريف عصمان حيدرا في باماكو أو بالنّسبة إلى جماعة «أنصار الدّين» في لاغوس (Lagos) الّذين يعارضون أعمال العنف، وهم يقيمون علاقة بين «أسلمة المجتمع» (Islamisation) و«النشاط الجهادي» (Djihadisme).

ويتخوّف الغربيون كذلك من التأثير الديمغرافي لبلدان السّاحل الإفريقي، وهي الّتي سيصل تعداد ساكنيها المسلمين عمّا قريب إلى أكثر من تعداد مسلمي الدّول العربيّة. ففي مرحلة التحرّر من الاستعمار مع مطلع الستينيات [من القرن الماضي] كان عدد المسلمين في شمال الصّحراء يُقدّر بعددهم نفسه في جنوبها، وهو ما يعادل المئة مليون نسمة في الجملة. وليس الأمر كذلك في الوقت الحاضر.

إنّ إفريقيا الّتي يلقّبونها بالقارّة السّمراء تَعُدّ منذ اليوم سدس سكّان العالم من المسلمين تقريباً، بفعل انفجار ديمغرافي مدهش، وهي نسبة مرشّحة للارتفاع. والحقّ أنّ خصوبة النّساء المسلمات في بلدان السّاحل والصّحراء تظلّ واحدة من أكبر النّسب في العالم، خلافاً لما لوحظ في بلدان المغرب العربي والعربيّة السّعوديّة وفي إيران، وهي بلدان قد سبقت بأشواط إلى التّقليص من نموّها الدّيمغرافي. وبعبارة أخرى، إنّ انتشار الإسلام في إفريقيا أو أَسْلَمَتها، لم يكن نتيجة حملات واسعة من «الإكراه في الدّين» (Conversion Forcée) تأتيه بعض الجماعات الرّاديكالية، خلاف ما يحاول الإقناع به عديد المنظّرين لمقولة «قوس

الأزمة»؛ وإنّما يتأتّى انتشار الإسلام في إفريقيا، وبكلّ بساطة، من نموّ ديمغرافي يتميّز بانخفاض مطّرد في وفيات الأطفال، وبالمحافظة على نسبة ولادات مرغوب فيها في المناطق الرّيفيّة (والمسلمة) أكثر، نسبيّاً، ممّا هو الشّأن في المدن (ذات الأغلبية المسيحيّة) في ساحل الأطلسي[1].

إنّ نيجيريا، على سبيل المثال، وهي البلد الأكثر كثافة سكّانية في بلدان السّاحل والصّحراء قد يصل تعداد سكّانها من المسلمين إلى (8%) من عدد مسلمي العالم كلّه سنة (2050م)، في مقابل نسبة (5%) سنة (2010م)، وستكون تبعاً لذلك في المرتبة الرّابعة بين البلدان الإسلاميّة الأكثر أهمّيّة في المعمورة بما يساوي (231) مليون مسلم بعد الهند (311) والباكستان (273) فأندونيسيا (257).

وهناك عامل آخر يخيف المحلّلين الّذين يعدون بلدان السّاحل الإفريقي مجموعة متجانسة، فيخلطون بين النّمو الدّيمغرافي في تلك البلدان وبين المشروع «العامّ» للجهاديين؛ هذا العامل هو أنّ البلدان الّتي استهدفتها الهجماتُ الجهاديّة تُمثّل إقليماً شاسعاً يتماثل، دونما مبالغة، مع بعض الأراضي الّتي وقعت تحت طائلة الدّولة الإسلاميّة، وهي في أوج قوّتها، في سورية والعراق. ومن جهة تحديدها مناخياً، بحسب توزّع كمّيات الأمطار فإنّ المنطقة السّاحليّة تمتدّ من جزر الرأس الأخضر (Iles du Cap Vert) إلى جيبوتي (Djibouti) وإريتريا (L'Erythrie) وحتّى أثيوبيا (L'Ethiopie) والصّومال (La Somalie). أمّا على المستوى الجغرافي، فإنّ مثل هذا الفضاء يطابق إلى أبعد حدّ أصل الكلمة العربيّة «ساحل» الّتي تعني أطراف الصّحراء [الكبرى] إلى حدود مناطق السّافانا في بلاد السّودان؛ إلا أنّ أصحاب نظريّة «قوس الأزمة» أكثر ما يرون في هذه المنطقة أنّها مجال لعبور الأفكار والمهاجرين والمقاتلين والجيوش؛ وهي في نظرهم مفتوحة على تأثير البلدان العربيّة وخاصّة ليبيا والجزائر ومصر وممالك البترول في الخليج؛ لذلك لا يكترثون بالمحرّكات المحلّية للمتمرّدين الّذين ولدوا في عالم «إفريقيا السمراء» والّذين لم يطلقوا إلى حدّ السّاعة هجمات في أوروبا أو في أمريكا.

---

[1] على المستوى العالمي حيث ستتضاعف نسبة السّكان حتّى عام 2050م، يُقدّر أنّ نسبة المسيحيّين ستخفض قليلاً من 95% إلى 63% خلال أربعين عاماً في مقابل ارتفاع في نسبة المسلمين من 30% إلى 35%

انظر:

- Conrad HACKETT, The Future of World Religions. Population Growth Projections, 20102050-, Pew Research Centre, Washington DC, 2015

في أنّ الجهاد مفهوم جديد متمطّط الدّلالة:

إنّ التّحدّي لهو، أساساً، تحليل معمّق لتداخل مظاهر العنف الّتي تتبنّاها جماعات من السّاحل الإفريقي تُصنَّف في خانة الجهاديين؛ لأنّ هذه الجماعات، وعلى خلاف الخلايا الإرهابيّة النّشطة في الغرب، مشدودة إلى تربة مخصوصة، وهي تستحضر باستمرار حرب العصابات في أزمنة سابقة. ويجب أن نميّزها من الكيانات المكوّنة لدولة والّتي كان لها في الماضي، أو في فترة أقرب، نزوع إلى أشكال من الإرهاب مثل الجماهيرية اللّيبيّة بقيادة معمر القذّافي، أو الجمهورية الإسلاميّة في السّودان الّتي آوت لاجئين مشهورين مثل أسامة بن لادن أو «إليس رامريزسانشيز» المشهور باسم «كارلوس» (Carlos).

هكذا يتوضّح النّسيج الدّاخلي للمجموعات الجهاديّة لمّا نُكثّف من التّحاليل السّياسيّة والسّوسيواقتصاديّة والتّاريخيّة والدّيمغرافيّة، تلك المجموعات الّتي نمت في جنوب الصحراء وتحديداً الفصائل الثّلاثة البارزة في هذه الكوكبة، وهي «[حركة] الشّباب في القرن الإفريقي» و«بوكو حرام» حول بحيرة التّشاد و«القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي» الّتي تتمركز بدءاً من شمال مالي.

إنّ مسار المعرفة، في هذا المجال، هو مسار محفوف بالمزالق، ذلك أنّ الوقائع هي دائماً محلّ جدل، ومن العسير إثباتها في البيئات الّتي نادراً ما تتهيّأ للتّحقيقات الميدانيّة وعمليات التّقصي المستقلّة، وذلك، إمّا شعوراً بعدم الأمان أو بسبب الموانع العسكريّة. ومن الناحية العمليّة، فإنّ المحلّل يجد نفسه منغمساً في أتون الحرب، وعندما يرغب في فهم تطوّر كلّ مجموعة يدرسها فإنّه غالباً ما يُواجَه بروايات عديدة متضاربة حول تاريخها. والنّتيجة هي أن يكون الباحث ليس دائماً في موقع يُمكّنه من الحسم. وبعيداً عن المصاعب الّتي تعترضنا عند إعادة تجزئة الوقائع فإنّ تحدّيات التّحليل تتعلّق كذلك بقضايا مصطلحية، لذلك فإنّ مصطلح «جهادي»، وهو مصطلح حديث النشأة نسبياً، يجب أن يوضع في سياقه مثلما يجب أن نتداوله بحذر؛ فالواقع أنّه قد أُسيء استعماله منذ هجمات (11) أيلول/سبتمبر (2001م). ويستعمل الخبراء، لفهم الإسلام الموسوم بـ «الراديكالي»، مقولات تنحو إلى حجب حقيقة المعركة، وهي مقولات لا يجد فيها كثير من المسلمين ما يُعرِّف بهم.

إنّ الجهاديين في الحقيقة ليسوا جميعاً دعاة عنف، وما يُعرف بالمؤسسين، وهم الجماعة السّلفية، ليسوا كلّهم جهاديين؛ ذلك أنّ الفويرقات تخترق المجموعة السّنية، فليس كلّ الصّوفية مناهضين للجهاد، وهم الّذين يوصفون عادة بالانتماء إلى التّعاليم الأكثر تسامحاً في الإسلام. أمّا مناوئوهم، وهم «الوهابيون» فإنّهم ينهلون من فكر مشايخ الصّوفية، ومع ذلك فهم يذمّون مذهب التّصوف. وبعبارة أخرى، فإنّه من الأهمّية بمكان أن نضع في اعتبارنا أنّه بحسب متطلّبات المرحلة تتمطّط دلالة المصطلحات وتتطوّر، إذ يبدّلها المحلّلون مثلما

تُبدِّل من دلالاتها الحركات الّتي يدرسونها. فمن جهة المتمرّدين، نجد أنّ عدداً من الجماعات أو من القادة يكثّفون من المقولات أو الإحالات القرآنية لبلوغ مآرب دنيويّة خالصة، من قبيل إسناد النّظام القائم؛ ولكنّ المصادر الدّينيّة نفسها هي الّتي يستعملها خصومهم أحياناً. ودون رفضهم رفضاً مطلقاً منذ المبدأ، يجب إذاً أن نتسلّح بقراءة في منتهى التّأصيل للأطر الدّلالية المكثّفة، أكانت ذات صبغة دينيّة أم لم تكن، وسواء أصدرت عن الفاعلين أنفسهم أم عن أولئك الّذين يمتهنون مهنة تحليل مقولاتهم أو محاربتها. ومن الأهمّية بمكان أن نوضّح كذلك أنّ تمييز بعض هذه الجماعات من بعضها مرتبط بالسّوابق التّاريخيّة والظّروف المحلّية؛ ذلك أنّ الجماعات الصّوفيّة في غرب إفريقيا مندمجة في المؤسّسة الإسلاميّة، وهي تظهر في الغالب بمظهر المُعبّر عن إسلام عامّة النّاس، ذلك الإسلام المتقوقع على نفسه والمعتدل والمتسامح. وإلى ذلك فإنّ جزءاً مهمّاً من تلك الجماعات تسرّب من البلاد العربيّة، وكان المحرّك الإيديولوجي للعمليّات الجهاديّة في السّاحل الإفريقي في القرن التاسع عشر. أمّا في منطقة شرق إفريقيا، حيث أسهم في انتشارهم عرب «زنجبار»، أي عرب عُمان أو اليمن، فإنّ تأثيرهم كان أقلّ وبات يُنظر إليهم أحياناً على أنّهم غرباء؛ لأنّ أتباعهم يتكلّمون في العادة اللّهجة «السّواحلية» أكثر ممّا يستعملون اللّغات الوطنيّة. وفي كلّ الحالات، يجدر بنا أن نوضّح بدقّة التّعارضَ بين «إسلام تقليدي أسمر» و«إسلام عربي راديكالي»، وهي رؤية رسّخها المُستعمِر قديماً، وواصل معها خبراء الإرهاب على هذه الأيّام.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2020

جميع الحقوق محفوظة © 2020